الموضوع السابع: التشبيه:

يعد مبحث التشبيه فى عيار الشعر أغرز مباحثه وأوفاها فى باب الدراسات البلاغية الموصولة بالإبداع الفنى فى القصيدة، وهو قبل ذلك يعُم أغراض الشعر الغنائى باعتباره فى مجمله شعرا وصفيا.

والتشبيه بكل أشكاله قرين الوصف الذى هو متداخل معه وظيفياً [١] وقد خصه المبرد بتفرد متميز فى كتابه «الكامل» شغل به سبعا وسبعين صفحة، أما قدامة بن جعفر فقد جعل التشبيه فى كتاب «نقد الشعر» غرضا قائما برأسه، ثم ذكره مرة أخرى فى عيوب الشعر [٢]. ثم وقف إسحاق بن وهْب فى كتاب «البرهان فى وجوه البيان» بابا على التشبيه قال فى مفتتحه: «وأما التشبيه فهو من أشرف كلام العرب، وفيه تكون الفطنة والبراعة عندهم، وكلما كان المشبِّه منهم فى تشبيهه ألطف كان بالشعر أعرف، وكلما كان بالمعنى أسبق كان بالحذق أليق» [٣] كل ذلك يدل على مدى الحظوة التى نالها التشبيه فى كتب النقد والأدب، وهو ما يفسر احتفال ابن طباطبابه، خاصة وقد اعتبره البلاغيون أصلا للاستعارة المؤسسة على صوره، قال عبدالقاهر الجرجانى فى أسرار البلاغة : «أما الاستعارة فهى ضرب من التشبيه ونمط من التمثيل.. والتشبيه كالأصل فى الاستعارة، وهى شبيه بالفرع له أو صورة مقتضبة من صوره»[٤]. فالبحث فى التشبية يطرّق للاستعارة والتمثيل والصورة الشعرية بوجه عام .

---

(١) انظر العمدة لابن رشيق ٢ / ٢٩٤، قال: «والشعر إلا أقله راجع إلى باب الوصف .. وهو مناسب للتشبيه، مشتمل عليه وليس به لأنه كثيرا ما يأتى فى أضعافه، والفرق بين الوصف والتشبيه أن هذا إخبار عن حقيقة الشىء، وأن ذلك مجاز وتمثيل «وانظر أسرار البلاغة لعبد القاهر ص ٥٧، فى احتواء التشبيه معنى الوصف فى مثل (الجاهل ميت)، وانظر تيارات النقد الأدبى فى الأندلس لعبد الرحيم عليان ص ٥١٢ فى التداخل الوظيفى بين التشبيه والوصف.

(٢) انظر الكامل ص ٤٠ ـ١١٧، ونقد الشعر ١٢٤، ١٩٠ .

(٣) البرهان فى وجوه البيان ص ٥٨ .

(٤) أسرار البلاغة ١٥، ٢٢ .

ومن التشبيه ما يكون للتعريض بمعنى «أن يُمَال بالكلام إلى جانب يُفْهم بالسياق والقرائن وهو المقصود... والتعريض أن يُفْهم من اللفظ معنى بالسياق والقرائن من غير أن يقصد استعمال اللفظ فيه أصلا.. فظهر أن التعريض يجامع كلا من الحقيقة والمجاز والكناية، بأن يقصد باللفظ واحد منها، ويشار بدلالة السياق إلى المعنى المعرض به. فلا يوصف اللفظ بالنسبة للمعنى التعريضى لا بحقيقة ولابمجاز ولابكتابة. فالتعريض ما أشير به إلى أمر آخر غير ما استعمل فيه اللفظ من حقيقة ومجاز وكناية[1].. وهذا ما أفسح له ابن طباطبا مبحثا جعله ضميمة مبحثه فى التشبيه.

قسم ابن طباطبا التشبيه أقساما على أساس الصفة المشتركة بين ركنى التشبيه. ونبه على أنه كلما اجتمع المشبه والمشبه به على أكثر من صفة قوى التشبيه، وتأكد الصدق فيه، وحسن الشعر به للشواهد الكثيرة المؤيدة له.

فالقسم الأول تشبيه الشىء بالشىء صورة وهيئة، كقول امرىء القيس:

كأن قلوب الطير رطْبا ويابِسا لدى وكْرِها العُنَّاب والحَشَفُ البالى

والقسم الثانى تشبيه الشىء بالشىء لونا وصورة، كقول النابغة:

تَجْلُو بقادِمَتَىْ حمامة أيكةٍ بَرَدًا أُسِفَّ لِثَاتُه بالإثْمِد

كالأُقحُوَان غداة غبٍّ سمائه جَفَّت أعاليه وأسفله نَدِى

والقسم الثالث تشبيه الشىء بالشىء صورة، ولونا، وحركة، وهيئة كقول امرىء القيس:

جَمَعْتُ رُدَيْنِيًا كأن سِنانه سَنَا لهبٍ لم يتَّصِل بدُخَان

والقسم الرابع تشبيه الشىء بالشىء حركة وهيئة كقول عنترة:

وتَرَى الذُّبَاب بها يُغَنِّى وحدَه هَزِجًا كفِعْل الشَّارب المُترنِّم

(١) بدوى طبانة: معجم البلاغة العربية ٢ / ٥٢٧ ـ ٥٢٨

غَرِدًا يَحُكّ ذراعه بذراعه قَدْحَ المُكِبِّ على الزِّنَاد الأَجْذَم

والقسم الخامس تشبيه الشىء بالشىء معنى لاصورة، كتشبيه الجواد الكثير العطاء بالبحر والحيا، وتشبيه الشجاع بالأسد، وكقول النابغة.

ألم تَر أن الله أعطاك سَوْرَةً ترى كل مَلْك دونها يتذبذب

فإنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبدُ منهن كوكب

والقسم السادس تشبيه الشىء الشىء حركة، وبطئا، وسرعة ، كقول امرىء القيس:

كأن الحَصَى من خلفها وأمامها إذا نَجَلَتْه رجلُها حَذْف أَعْسَرا

والقسم السابع تشبيه الشىء بالشىء لونا، كقول الشماخ:

إذا ما الليل كان الصبح فيه أشَقَّ كمَفْرِقِ الرأس الدَّهِين

والقسم الثامن تشبيه الشىء بالشىء صوتا كقول الراعى:

كأن دَوِيَّ النّحْل تحتَ ثيابها حصَادُ السَّفَا لاقى الرياح الزَّعَازِعَا

(العيار ٢٥ـ ٤٣)

وبعد هذا التقسيم ذَكَر التعريض الذى يكون فى المجاز والحقيقة على ما فصلناه فى صدر هذا الموضوع، وهو يشمل الكناية وغيرها.

فمن التعريض قول الشَّمَيْذَر الحارثى:

بنى عمنا لا تذكروا الشِّعر بعدما دَفَنْتُم بصحراء الغُمَيْر القوافيا

(العيار ٤٦)

«وليس قصده هاهنا الشعر بل قصده ما جرى لهم فى هذا الموضع فى الظهور عليهم والغلبة ، إلا أنه لم يذكر ذلك، بل ذكر الشعر، وجعله تعريضاً لما

قصده، أى لاتفتخروا بعد تلك الوقعة التى جرت لكم ولنا بذلك المكان»(١).

ومن التشبيه الضمنى الذى يفيد تضمين معنى الفزع والارتباك قول شاعر:

لعمرى لنعم الحَىُّ حىُّ بنى كعب إذا نزل الخَلْخَال منزِل القُلْبِ

(العيار ٤٦)

فالخَلْخَال موضعه الساق، والقُلْب (السِّوار) موضعه المِعْصَم، وعندما فزعت المرأة وهلعت لبست الخَلْخَال فى معصمها دَهَشًا، فقد خُيِّل إليها أن الخَلْخَال سِوَار، وشُبِّه عليها الأمر فلم تميز بينهما، فكأن كلا منها هو الآخر فى تقديرها.

ويذكر ابن طباطبا الاختصار فى التضمين والتشبيه الذى يحمل فيه المشبه به من الصفات ما يغنى عن التطويل فى شرح أحوال المشبه، كقول لبيد:

وبنو الدَّيَّان أعداءٌ للا وعلى ألسُنِهم ذَلَّتْ نعم

زَيَّنَتْ أجسابُهم أنسابَهم وكذلك الحِلْم زَينٌ للكرم

(العيار٤٧)

فإذا نُثر البيت الثانى كشْفًا للعلاقة بين معنى الشطر الأول (المشبه)، وبين معنى الشطر الثانى(المشبه به) لاستغرق ذلك أضعاف ما أوجزه التشبيه فى البيت. أما البيت الأول فتضمين موجز للسماحة والكرم.

ونبه ابن طباطبا على أداة التشبيه تنبيها يرتبط بالصدق وما قاربه، قال:«فما كان من التشبيه صادقا قلت فى وصفه : كأنه، أو قلت ككذا، وما قارب الصدق قلت فيه: تراه، أو تخاله، أو يكاد.

(١) ابن الأثير : المثل السائر ٣ / ٧٥

(٢) انظر أحمد مصطفى المراغى: علوم البلاغة ١٩٥ .

فمن التشبيه الصادق قول امرىء القيس:

نَظَرْتُ إليها والنجومُ كأنها مصابيحُ رُهْبانٍ تُشَبُّ لقُفَّال

فشبه النجوم بمصابيح رهبان لفرط ضيائها، وتعهّد الرهبان لمصابيحهم، وقيامهم عليها لتزهر إلى الصبح، فكذلك النجوم زاهرة طول الليل، وتتضاءل للصباح كتضاؤل المصابيح له. وقال: تُشَبّ لقفّال لأن أحياء العرب بالبادية إذا قَفلت إلى مواضعها... أُوقدت لها نيران على قدر كثرة منازلها وقلتها ليهتدوا بها، فشبه النجوم ومواقعها من السماء بتفرق تلك النيران واجتماعها»

(العيار ٣٢ـ ٣٣)

ويظهر من هذا الشرح أن مقصود ابن طباطبا من الصدق هو البعد عن المغالاة وترك الإغراق والمبالغة والتجوز إلى التحقيق والتصحيح، واعتماد ما يجرى من العقل على أصل صحيح، فذلك أحب إليه وآثر عنده. يؤكد ذلك وهو يتحدث عن أشعار المولدين فيقول: «فإن من كان قبلنا فى الجاهلية الجهلاء وفى صدر الإسلام من الشعراء كانوا يؤسسون أشعارهم فى المعانى التى ركبوها على القصد للصدق فيها مديحا، وهجاء، وافتخارا، ووصفا، وترغيبا، وترهيبا، إلا ما قد احتُمِل الكذُب فيه فى حكم الشعر من الإغراق فى الوصف، والإفراط فى التشبيه. وكان مجرى ما يوردونه منه مجرى القصص الحق، والمخاطبات بالصدق فيحابون بما يُثَابُون، أو يُثَابون ما يحابون والشعراء فى عصرنا إنما يثابون على ما يُستَحْسَن من لطيف ما يوردونه مَن أشعارهم، وبديع ما يغربونه من معانيهم... دون حقائق ما يشتمل عليه من المدح والهجاء وسائر الفنون.. فإذا كان المديح ناقصا عن الصفة التى ذكرناها كان سببا لحرمان قائله والمتوسِّل به، وإذا كان الهجاء كذلك أيضاً كان سببا لاستهانة المهجو به». (العيار ١٣)..

فالقدماء فى رأى ابـن طباطبا يجمعون بين الصـدق والكذب ، الصدق فى المعـانى بعـدم مخالفـتها لحـقائق الأمـور، أو الخروج بهـا عما يرفـضه العـقل، والكذب فيما يحتمل الكذب فيه فى حكم الشعر، وهو يقصد الصياغة البلاغية كالإفراط فـى التشبيه، والإغـراق فى الوصف، وهذا متـسق مع رأيه فى تشـبيه امرىء القـيس النجوم بمصـابيح الرهبـان بلا إفراط أو مغالاة تُـبْعِد التشبـيه عن الحقيقة الماثلة للعقل والعيان، ويقبلـها التصور. ثم جعل ما يستحسن من أشعار المحدثين راجعا إلـى غرابة معانيها، وبلاغـة ألفاظها، ولطف نوادرهـا وطرافتها وليس إلى قصدهم الحقائق والصدق فيها.

وقد فصَّل عبد القاهر الجرجانى القول فى هذه القضية فى أسرار البلاغة (١).

ثم يـزيدنـا ابن طبـاطبـا توضيـحا لرأيـه فى الحـقيقـة والصـدق وما يقـاربهـما أويخالفهما فى نقده ثلاثة نصوص قدم لهمـا بقوله :«وينبغى للشاعر أن يجتنب الإشارات البعيدة، والحكايات الغَلِقَة، والإيماء المشكل ، ويتعمد ما خالف ذلك، ويستعمل من المجاز ما يقارب الحقيقة ولا يبعد عنها ، ومن الاستعارات ما يليق بالمعانى التى يأتى بها «(العيـار ١٩٩ ـ٢٠٠) وهذا متفق مع قوله بالاقتصاد فى المجاز وعدم الإغراق والمغـالاة بما يُخرج المعانى عن الحـقيقة، ويُباعد بيـنهاوبين الصدق.

والنص الأول من الحـكايات الغَلِقة، وهو قـول المُثَقِّب العَبْدى يـتحدث عن ناقته وقد أتعبها السفر وأضنتها الرحلَة:

«تقولُ وقد دَرَأتُ لها وَضِينِى — أهذا ديـنُه أبـــدًا ودينـــى

أكلَّ الدهر حِـــلٌّ وارتحـــالٌ — أما يُبْقى عليه ولا يَقِينـــى

فهذه الحكاية كلـها عن ناقته من المجاز المباعد للحقـيقة، وإنما أراد الشاعر أن

---

(١) انظر أسرار البلاغة : القسم التخييلى ٢٣١ ـ٢٣٩ .

الناقة لو تكلمت لأعربت عن شكواها بمثل هذا القول» (العيار ٢٠٠) وواضح أن إنطاق الناقة بهذه الشكوى معدود عند ابن طباطبا من المجاز المُبعِد فى الخيال.

والنص الثانى» الذى يقارب الحقيقة قول عنترة فى وصفه فرسه:

فازْورَّ عن وَقْعِ القَنَا بلَبَانه وشكا إلىَّ بِعَبْرَةٍ وتَحَمْحُم

(العيار ٢٠١)

والفرق بين وصف عنترة ووصف المثقِّب أن عنترة «لم يجعل جواده متكلما، ولا شاكيا بعبارة كعبارة الإنسان، ولامحاورا له يسأل ويجيب ، ولكنه قال: لوكان الجواد يعرف الحوار لحاوره، ولو كان يعلم الكلام لكلمه، فلم ينسب إلى جواده شيئا ليس فى استطاعته، بل جعله عندما اشتكى ـ شاكيا بالدموع والصوت المردد» [1] وهذا أقرب إلى الواقع المقبول عقلا مما أوغل فيه المثقِّب.

والنص الثالث «من الإيماء المشكل الذى لايُفهم، وقد أفرط قائله فى حكايته، قول الآخر (وهو عمر بن أبى ربيعة):

أوْمَتْ بكفيَّها من الهَوْدَج لولاكَ هذا العام لم أَحْجُج

أنت إلى مكة أخْرَجْتَنِى حبًّا، ولولا أنت لم أَخْرُجِ

فهذا الكلام كله ليس مما يدل عليه إيماء، ولا تعبر عنه إشارة » (العيار ٢٠١).

والإفراط هنا فى إجراء كلام كثير عن طريق الإيماء والإشارة وهو ما لايطابق الواقع أو يصدقه التصور.

وبهذا يكون الصدق عن ابن طباطبا فى عدم اتساع المفارقة بين الواقع والصورة فى الشعر، والبعد عن الإفراط فى الخيال ، والاقتصاد فى المجاز. فهو

(١) أحمد بدوى : أسس النقد الأدبى عند العرب ٤٠١

من الذين يقولون «خير الشعر أصدقه» بترك الإغراق والمبالغة والتجوّز، وليس ممن يقولون «أعذب الشعر أكذبه» قاصدين «أن الصنعة إنما يُمَدّ بَاعُها، ويُنشر شعاعها، ويتسع ميدانها، وتتفرع أفنانها، حيث يعتمد الاتساع والتخييل ، ... ويذهب بالقول مذهب المبالغة والإغراق... وهناك يجد الشاعر سبيلا إلى أن يُبدع ويزيد، ويبدئ في اختراع الصو ويعيد... ويكون كالمغترِف من غدير لاينقطع والمستخرج من معدن لاينتهى» (١).

وعلى الرغم مما أشاعه ابن طباطبا فى كتابه من الدعوة إلى الصدق فى التعبير عن المعانى النفسية والتاريخية وما يتأسس على ذلك من قيود لايطيقها المحدثون ـ فإن استثناءه الكذب المحتمل فى حكم الشعر من إلحاحه على الصدق، يوقفنا على رأى مزدوج، فيه التزام بحقيقة المعانى الواقعة بلا تزييف كأن يوصف الكريم بالكرم، والبخيل بالبخل وليس العكس، وفيه أيضاً إفساح للخيال أن يتوسع فى صنعة الشعر بالمبالغة المقبولة، والمجاز القريب المأتى بغير إبعاد يخرج الحقيقة إلى الاستحالة. وهذا واضح فى قوله:«إلا ما قد احتمل الكذب فيه فى حكم الشعر من الإغراق فى الوصف والإفراط فى التشبيه». وهو ما يبرىءابن طباطبا من قول إحسان عباس:«كان التزام ابن طباطبا بالحقيقة شديد الجنابة على النقد»(٢). وهو قول فيه إفراط ومبالغة وتعميم للحكم على أطراف لاتنضوى إلى حكم واحد، إذ الصدق فى الواقع غير الصدق فى وصف المشاعر والأحاسيس النفسية، والصدق فى السرد التاريخى والحكايات غير الصدق فى الصياغة البلاغية المُصَوِّرة للرؤى الشعرية، وهذه كلها مفصلة فى عيار الشعر بما نُقِرُّ ابن طباطبا عليها أحيانا ونخالفه فيها أحيانا أخرى. فليس الصدق والكذب حالة واحدة فى الواقع، والفن، والنفس.

---

(١) عبدالقاهر الجرجانى: أسرار البلاغة ٢٣٧ .

(٢) تاريخ النقد الأدبى : ١٤٥ .